باشـــلار والمادية التاريخية

محمـد وقيـدي

ـ 1 ـ

هل هناك علاقة بين باشلار والمادية التاريخية ؟

قبل أن يصدر كتاب التوسير « دفاعا عن ماركس » وقبل أن يستعير التوسير مفهوما باشلاريا هو القطيعة الابستمولوجية ليستخدمه أداة لفهم تطور تفكير ماركس ، لم يكن من الممكن الحديث عن مثل هذه العلاقة . لقد كان الصمت متبـادلا .

واجه باشلار المادية التاريخية بالصمت .

هناك لا شك التصريحات المتكررة لباشلار ببناء موقف مادي جديد ، بل وهناك لا شك بعض التصريحات التي يذكر فيها باشلار بضرورة بنـاء موقف مادي جدلي أو مادي تاريخي . من هذه التصريحات قوله بصدد الكيمياء المعاصرة : « للكيمياء ، كباقي العلوم المقامة علـى أساس قـوي ، ماديـة تاريخية خاصة بها ، بل ويمكن القول ان تطورها المرتبط ضرورة بالضرورات الاقتصادية يرسم بصفـة خاصـة خطـا متميـزا للماديـة الجدليـة » ولكن مثل هذه التصريحات لا ينبغي أن تفهم الا ضمن موقفه العام . فبدون ذلك ستكتسب ، ان هي أخذت منعزلة ، قيمة تفوق قيمتها ، وتأويلات تخرج بها عن حقيقتها ضمن الموقف العام لباشلار . ولن تكون بذلك الا عائقا سيعمل على تشويش فهمنا لباشلار . الموقف العام اذن هو الصمت . ويتجلى هـذا الصمت في ان باشلار بالرغم من تصريحاته المتكررة المعلنة عن قيام موقف جديد يتجاوز الموقف المادي التقليدي ، فانه يقتصر على نقـد الفلسفـات التجريبية والواقعية ، منتقدا من خلالها ما يسميه فلسفة مادية ساذجة . وخلال هذه الانتقادات جميعها ، لا ينتبه باشلار الى موقف مادي متطور جدلي ، يقوم هو ايضا على انتقاد الفلسفات المادية التقليدية الميتافيزيقية ، وهو موقف يعلن مثلما يفعل باشلار أنه يعتمد في انتقاده على تطور العلوم ، ويعلن مثلما يفعل باشلار عن ضرورة التجديد في الموقف الفلسفي كلما دعت الـى ذلـك

مقتضيات التطور العلمي .

يتجلى الصمت أيضا في كون باشلار ، الذي يعمل على التفكير في التاريخ العلمي ، لا يعمل على أن يستفيد من العناصر المنهجية الايجابية التي يمكن أن يستمدها من المنهج المادي التاريخي . وقد كان من الممكن أن يكون تحليل باشلار أكثر غنى لو أنه عمل على تحقيق مثل هذه الاستفادة ، دون أن نقول انه من الضروري أن يتبنى موقفا ماديا تاريخيا .

فهذا الموقف الاساسي لا تغير منه تصريحات مثل التي أعطينا مثالا عنها، لانها تصريحات تدخل في اطار المرفق المادي الذي يطن باشلار عن اقامته باستمرار . هذا الموقف الذي يعمل على أن ينتقد باسم ما يدعوه مادية عقلانية كل الفلسفات التي تقول بوجود موضوعي لموضوعات معرفتنا . ولسنا بحاجة الى أن نعيد بتفصيل ذكر الجوانب المثالية لهذا الموقف ، وان كان يكفي أن نشير الى موقفه من التأويل اللاحتمي لنتائج الميكروفيزياء المعاصرة ، وما يبرز هذا الصمت الباشلاري هو الموقف الايديولوجي الضمني الذي كانت تتخذه فلسفة باشلار ، وهذا الموقف هو جزء من موقف عقلاني عام وجد في الفلسفة الفرنسية المعاصرة في الفترة نفسها بدأ موقف باشلار هذا ، ليكون بلا نهاية . فقد استمر منذ بداية كتابات باشلار الابستمولوجية برسالة للدكتوراه سنة 1927 ، الى الكتاب الذي ختم به هذه الكتابات وهو « المادية العقلانية » ، وذلك بالرغم من التصريحات المادية التي نجدها في هذا الكتاب .

أما الماديون التاريخيون فانهم قد واجهوا الفلسفة الباشلارية بصمت . ولكن موقفهم من باشلار يختلف عن موقفه من ناحيتين : الاولى في الاسباب الداعية الى وجود مثل هذا الموقف ، والثانية في أن الصمت المادي التاريخي عند باشلار قد كانت له نهاية هي التي أعلن عنها التوسير باستعارته لمفهوم **القطيعة الابستمولوجية** واستخدامه لها في فهم تطور تفكير ماركس. والاسباب راجعة الى وضعية الفلسفة الماركسية في فرنسا في الزمن المعاصر لكتابات باشلار . كانت هذه الوضعية وضعية ازمة . كانت الفلسفة الماركسية الفرنسية تعيش فترة الجمود الناتجة عن تأثرها بالتأويل الستاليني للماركسية . ولا نظن أن الازمة افتتحها الاهتمام بباشلار ، لان هذه الازمة وجدت قبل ذلك وهي التي منعت وجود هذا الاهتمام قبل أن يكون . لا نوافق اذن على ما يذهب اليه بعض الدارسين الماركسيين لباشلار .

لنقرأ أولا ما يراه ميشيل فادي بهذا الصدد . يقول : « لقد أصبح باشلار مشكلة بالنسبة للفلسفة الماركسية ، وبالنسبة للفلاسفة المعاصرين عامة . هذه ظاهرة حديثة ، قد تم تهييؤها بصمت منذ زمن طويل ، ولكنها بدأت في الظهور في الفكر الفرنسي بفضل الاستعارة التي قام بها التوسير في الستينات لبعض المفاهيم المحدودة ، ولكن الاساسية في فلسفة باشلار ، وذلك من أجل

تحقيق قراءة نظرية جديدة لاهم أعمال ماركس »

ولا نعتقد من جهتنا أن الازمة قد بدأت مع الاهتمام بباشلار بعد الاستعارة التي قام بها للتوسير لبعض مفاهيمه . ونعتقد على العكس من ذلك أن هذا الاهتمام علامة على زوال تلك الازمة . وحتى يفهم قولنا هذا في حدوده نعبر عنه بصورة أخرى بقولنا : هناك اسباب موضوعية لازمة الماركسية المعاصرة في فرنسا في فترة معينة ، ولم يكن الصمت الذي ووجهت به الفلسفة الباشلارية أحد هذه الاسباب ، بل مظهرا من مظاهر وجودها ، وهناك أسباب موضوعية أخرى هي التي ساعدت على ارتفاع هذه الازمة ، ولم يكن الاهتمام بباشلار الا علامة على زوالها .

إننا نريد أن نفهم علاقة باشلار بالمادية التاريخية في هذه الفترة التي كان كل من الموقفين يواجه فيها الآخر بصمت ، ولكن بفهم جدلي للشروط الموضوعية التي جعلت موقف كل منهما كذلك .

ان « دومينيك لوكور » ، وهو أحد الدارسين الماركسيين الذين كتبوا عن باشلار أكثر من دراسة ، يشير الى الاهمال الذي ووجهت به فلسفة باشلار مدة طويلة ، والى قلة الدراسات التي أنجزت حولها ، وذلك لكي يعلن أن « عمل باشلار يخرج من ليل عميق » . هذا الليل العميق هو ليل الفلسفة الفرنسية المعاصرة التي كان يغلب عليها في زمن باشلار ، كما يرى « لوكور » ، فلسفات روحانية .

ولكننا نريد ان نضيف الى ما يقوله « لوكور » بأن الاهمال الذي تعرضت له فلسفة باشلار لم يكن من جانب الفلسفات الروحانية التي لم تكن قادرة على استيعاب المعطيات الجديدة التي جاءت بها الفلسفة البشلارية فحسب ، بل كان أيضا من جانب المادية التاريخية التي بالرغم من أنها موقف مادي متطور فانه لم يكن قادرا حين نشأة فلسفة للعلوم الباشلارية على أن يحاور باشلار ويتخذ موقفا واضحا منه .

لم يعد باشلار يكون أزمة بالنسبة للفلاسفة الماركسيين بعد استعارة التوسير منه ، فهذا كما رأينا هو على العكس من ذلك علامة لزوال الازمة ، بل كان باشلار يكون ازمة بالنسبة لاولائك الفلاسفة قبل هذه الاستعارة . لقد كانت هذه الفترة بالنسبة للماركسية هي فترة تأكيد المقولات أكثر مما هي فترة استخدام هذه المقولات في التحليل .

ولهذا كله أسباب موضوعية لا يسعنا التعرض لها في هذه الدراسة . كان هنالك اذن صمت متبادل بين باشلار والفلاسفة الماديين التاريخيين . ولكن صمت باشلار وجد واستمر دون ان تكون له نهاية . وما كان له في الحقيقة الا أن يستمر ، والا فانه لو كان قد ارتفع لخرج بالفلسفة البشلارية

عن منطقها الداخلي من احدى الناحيتين ، اما ان تخرج هذه الفلسفة عن موقفها الايديولوجي الضمني لترفعه الى مستوى العلن . ولكن الموقف العقلاني المطبق الذي بناه باشلار كان يريد أن يكون موقفا يعتمد على النتائج العلمية، وكان يريد من خلال اعتماده على هذه المواقف أن يظهر بمظهر الموقف العقلاني القادر على تجاوز الصراع التقليدي الذي يدور في الميتافزيقا بين الموقفين الميتافيزيقيين العقلاني والواقعي . ولو خرج باشلار بموقفه الايديولوجي الضمني الى العلن ، لفقد ذلك الموقف وظيفته الايديولوجية ذاتها كما أراد لها أن تكون ، أما الناحية الثانية التي كان من الممكن لو ارتفع فيها صمت باشلار أن يغير ذلك من موقفه فهي اعتبار العناصر الايجابية في التحليل ضمن المادية التاريخية والاستعانة بها في تحليل تاريخ التفكير العلمي . كان من الممكن في هذه الحالة أن يتطور تحليل باشلار لمفهوم **العائق الابستمولوجي** في مصدره وفي صوره. وكان أن يتطور تحليل باشلار لما يدعوه بالمدنية التقنية والعلمية. وكان من الممكن أن تحدث تطورات أخرى في التحليل من شأنها أن ترفع عن فلسفة باشلار بعضا من مظاهر تناقضها الداخلي ، كأن يتطور مثلا المشروع الباشلاري في ان تكون مهمة فلسفة العلوم هي التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية ، ليصبح هذا المشروع تحليلا يعتمد لا على معطيات علم النفس فحسب ، بل على معطيات تاريخية ومجتمعية أيضا . أما صمت الماديين التاريخيين عن باشلار فقد وجد وانتهى . وما كان له الا ان ينتهي ، والا فان استمراره يتناقض مع دعوى الموقف المادي التاريخي ذاته .

المظهر الاول لهذا التناقض هو أن الفلسفة المادية التاريخية موقف منهجي ونقدي ، وكان يلزم له من حيث هو كذلك أن يمارس التحليل والنقد ازاء المواقف الفلسفية الاخرى التي تنشأ وأن يعمل على توضيح عناصر موقفها وعلى اتخاذ موقف منها .

المظهر الثاني لهذا التناقض هو أن المادية التاريخية موقف منهجي متطور ، وانه يعمل من حيث هو كذلك على اتخاذ موقف نقدي من المواقف الفلسفية الاخرى ، بصورة جدلية تعمل في الوقت ذاته على نقد الاسس التي لا يمكن قبولها وعلى احتواء كل ما هو ايجابي في تلك المواقف الاخرى ذاتها . كانت هذه حالة ماركس مثلا مع هيغل ومع كل الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . ولكن علاقة ماركس بهيغل لم توجد لتكون علاقة فريدة ، بل وجدت لتكون نموذجا للعلاقة التي يمكن أن تقوم بين المادية التاريخية والمواقف الفلسفية الأخرى .

ونعتقد أن فلسفة باشلار قد قدمت في هذه الناحية بعض العناصر الايجابية التي لا ينبغي اهمالها ، وان كان ينبغي النظر اليها في الوقت نفسه

نظرة نقدية تحاول أن تخرجها من اطارها النظري لتضعها في اطار نظري جديد أكثر شمولا .

هناك **أولا** البرنامج الذي يضعه باشلار لعمل الابستمولوجيا ، وهو برنامج يحتوي على عناصر ايجابية في نظرنا ، لم تكن الفلسفات التقليدية قادرة على تضمينها ضمن اشكاليتها . والبرنامج يحتوي على ثلاث مهام : ابراز القيم الابستمولوجية ، والبحث في أثر المعارف العلمية في بنية الفكر ، والتحليل النفسي للمعرفة العلمية . هناك حقا حاجة الى نقد ضروري لهذا البرنامج في صورته وفي نتائجه ، ولكن هنالك ضرورة لرفع الاهمال عنه والاهتمام به .

وهناك **ثانيا** نظرية باشلار في تاريخ العلوم ، والمتمثلة في مفهوميه : العائق الابستمولوجي والقطيعة الابستمولوجية . يعبر هذان المفهومان عن وجهة نظر لا استمرارية في تاريخ العلوم ، ومفهومه عن القطيعة الابستمولوجية بصفة خاصة هو مفهوم نظري لتفسير الثورات العلمية . والنظرية المادية التاريخية بدورها تعبر عن وجهة نظر لا استمرارية في التاريخ العام . انه يمكن حقا أن تعتبر نظرية باشلار في تاريخ العلوم نظرية مثالية ، ولكن هذا لا يمنع مع ذلك من التقدير الايجابي ، ومن التساؤل الذي يريد حقا أن يكشف عن قيمة النظرية الباشلارية حول الثورات العلمية وعلاقتها بالمادية التاريخية. ولا يتردد أحد الدارسين الماديين التاريخيين في أن يطرح مثل هذا التساؤل اذ يقول « ميشيل فادي » : لقد أخذ هذا السؤال منذ باشلار أهمية « استراتيجية » ضمن الفلسفة الفرنسية المعاصرة ، وخاصة في الاعمال المتعلقة بنظرية وتاريخ العلوم . ان فكرة وجود قطيعات في تاريخ العلوم وتاريخ الفكر ، وكون المعرفة العامة والمعرفة العلمية في حالة قطيعة تامة تبعا لباشلار ، أمر يدعو الى طرح التساؤل حول التقارب بين باشلار والمادية التاريخية . ألا تضع هذه الاطروحة باشلار الى جانب الفلاسفة الجدليين والماديين ؟ . ألم يكن محقا في أن يعارض التصورات النظرية لسابقيه (كونت، برغسون، لالاند، برانشفيك، دوركهايم، الخ ...) بنظرة أكثر جدلية سيعرف التاريخ تبعا لها قفزات وثورات وتغييرات في القاعدة ؟ ثم أليست أطروحات باشلار « عامة » ، حتى وان لم يكن قد اهتم الا ببعض القطاعات من تاريخ العلوم ، وببعض العلوم ؟ أليست انتقاداته لكل التصورات الاستمرارية في الثقافة انتقالا ، في الممارسة على الاقل ، الى مواقف مادية تاريخية بصفة عامة، وتدليلا على صلاحية المادية التاريخية في ميدان تاريخ العلوم بصفة خاصة ؟ ثم ، ألا ينتقل باشلار في ارتباط مع كل ذلك الى أسهل مادية في الفلسفة وذلك حين يعترف بنسبية المعارف تبعا لفترات تاريخية معطاة ؟ . »

لا تعني هذه التساؤلات أن الماديين التاريخيين قد بدأوا ينظرون الى باشلار ، وبعد صمتهم الطويل ، كما لو كان ماديا تاريخيا . ولكننا نقول انها علامة اهتمام بالاطروحات التي قدمها باشلار ، وبيان لجوانبها المتقدمة ، وابراز لحدودها ، فميشيل فادي ذاته ، وهو صاحب هذه التساؤلات ، تبنى في كتابه عن باشلار وجهة نظر تجعل من باشلار فيلسوفا مثاليا ذا منطلقات مثالية يعتبرها الاساس ، ويحاول أن ينظر في ضوئها الى كل المظاهر التي قد تقترب فيها فلسفة باشلار من الفلسفات المثالية ، كما يحاول أن يفهم في ضوئها كل التصريحات التي يعلن فيها باشلار ذاته عن موقف مادي . ولقد اصبحت هذه التساؤلات ممكنة بعد الموقف الذي اتخذه التوسير ، كما تعددت الدراسات التي اقيمت حول باشلار من وجهة نظر مادية تاريخية لتصنفه ، ولاتخاذ موقف من النتائج التي وصلت اليها فلسفته في العلوم .

ـ 2 ـ

كان لا بد من أن يوضع حد للصمت المتبادل الذي دام ما يزيد بقليل على ربع قرن بين المادية التاريخية وباشلار . وقد فعل التوسير ذلك بقوة نوعية خاصة . فتح التوسير باب الحوار بين المادية التاريخية وباشلار ، ولم يكن ذلك بانجاز دراسة تاريخية أو تصنيفية عنه ، بل تجاوز ذلك الى الاستفادة منه .

اخذ التوسير عن باشلار مفهوم القطيعة الابستمولوجية واستخدمه في فهم تطور فكر ماركس وفي فهم نشأة المادية التاريخية .

وقد أغنى التوسير بهذا مفهوم القطيعة الابستمولوجية ، بامتحانه في ميدان آخر غير الذي استمده منه واستخدمه فيه باشلار . كما أغنى من جهة اخرى تحليل الفكر الماركسي وفهمه . كان التوسير واعيا بذلك فلم ينقل مفهوم القطيعة الابستمولوجية نقلا ميكانيكيا .

استخدم التوسير مفهوم القطيعة الابستمولوجية من أجل فهم تطور فكر ماركس ، من أجل أن يستطيع تعيين الفترة التي نستطيع فيها القول بانه قد نشأ لدى ماركس الفكر الذي يخصه ، أي ما يميز الماركسية . وقد كان استخدام ذلك المفهوم لاهداف نظرية وايديولوجية خاصة . كان السؤال المطروح : من هو ماركس الحقيقي ؟ وكان التفسير الذى تلجأ اليه بعض النزعات المناهضة في الواقع للماركسية ، هو أن تحاول الرجوع الى المؤلفات الاولى لماركس ، تلك التي كان ماركس لا يزال خاضعا فيها لاشكالية الايديولوجيا القائمة لكي تجعل منه ماركس الحقيقي . كان هذا التفسير اذن يأخذ الجانب الذي تبدو فيه الماركسية نزعة انسانية ، ويريد أن يقف عنده باعتباره حقيقة تلك الفلسفة ، معتبرا كل ما جاء بعد ذلك غير ممثل لحقيقة

للماركسية . وهذا على هذا التفسير ، كان بعض الماركسيين يلجأون الى الدفاع عن الفكرة التي تأخذ الماركسية كحقيقة تاريخية . وتدافع عن حقيقة الموقف الماركسي ككل . ما هي حقيقة التفكير الماركسي اذن ؟ هي كل تفكير ماركس .

ولكن التوسير لا يوافق على التفسيرين السابقين معا . فحقيقة الماركسية لا تتمثل في كونها نزعة انسانية ، والتفسير الذي يريد أن يقف عند هذه الحدود يريد أن يقف في فهم ماركس عند الحدود التي لا تتمثل فيها الحقيقة التي تميز الماركسية . غير ان حقيقة الماركسية ليست في مقابل ذلك كل ما كتبه ماركس . ولا بد اذن للوقوف على حقيقة فكر ماركس من أن نقف عند اللحظة التي نشأ فيها لديه ما يميز موقفه كموقف جديد ، لا بد أن نقف عند نشأة المادية التاريخية . وهذا هو الهدف الذي يستخدم التوسير من اجله مفهوم القطيعة الابستمولوجية .

ما هي النتائج التي يبلغها التوسير بفضل استعانته في التحليل بمفهوم القطيعة الابستمولوجية ؟

كان هدف باشلار من مفهوم القطيعة الابستمولوجية التعبير عن الثورات العلمية في العلوم المعاصرة . ويريد التوسير بالمثل أن يفهم بفضل استخدامه لذلك المفهوم الثورة التي حدثت في فكر ماركس والتي جعلته ينتقل من التفكير الايديولوجي الى التفكير العلمي ، ثم الثورة التي احدثها تفكير ماركس بفضل ذلك عند تأسيسه لعلم جديد هو تاريخ التشكيلات المجتمعية. على ان التوسير لا يكتفي لفهم هذه الثورة بأن يستعير من باشلار مفهوم القطيعة الابستمولوجية ، بل ايضا مفهوم **الاشكالية** من جاك مارتان J. Martin ويتحدد معنى مفهوم الاشكالية في كونه « الوحدة المميزة لنظرية ما » . فبفضل المزاوجة بين هذين المفهومين يقدم التوسير وجهة نظره حول التطور الذي حدث في فكر ماركس .

يرى التوسير أن هناك ، لا ريب ، قطيعة ابستمولوجية حدثت في فكر ماركس يمكن أن نحدد تاريخها في سنة 1845 وهي السنة التي كتب فيها ماركس « القضايا حول فويرباخ » ، كما كتب فيها أيضا كتابه « الايديولوجيا الالمانية » . ذلك أن مضمون القضايا والايديولوجيا الالمانية يمثل في نظر التوسير بداية لوعي نظري جديد ، وماركس ذاته يعترف بذلك عند ما يقول بانه قد عمل في هذه الفترة على تصفية علاقته بالوعي الايديولوجي السابق .

ينقسم فكر ماركس بفضل هذه القطيعة الابستمولوجية الى قسمين كبيرين : فكر ما قبل القطيعة وهو الذي يصفه التوسير بالفكر الايديولوجي ، وفكر ما بعد القطيعة ، وهو الذي يدعوه بالفكر العلمي . على أن التوسير يرى

ان مرحلة ما بعد القطيعة يمكن ان تقسم ايضا الى قسمين . ذلك ان القطيعة تعني الانتقال من اشكالية الى اخرى ، وهذا لا يتم دفعة واحدة بالانتقال الى وحدة نظرية متميزة جديدة يقتضي لا وعيا نظريا جديدا فحسب ، وانما جملة من المفاهيم الجديدة التي تتم فيها صياغة ذلك الوعي . يقول التوسير : « اننا لا نقطع دفعة واحدة مع ماض نظري . لا بد على كل حال من كلمات ومفاهيم لكي نقطع مع كلمات ومفاهيم . وان الكلمات القديمة في الغالب هي التي تكلف بـ « بروتوكول » القطيعة طيلة الوقت الذي يستمر فيه البحث عن كلمات جديدة . ان صياغة اشكالية جديدة جزء من تلك الاشكالية ذاتها ، ولذلك يمكن ان نقول بأنه لا يتم قيام هذه الاشكالية الجديدة بصورة كاملة الا عند ما توجد جملة المفاهيم التي تصوغها ، ولذلك تستمر القطيعة فترة من الزمن . وهكذا ينقسم فكر ماركس تبعا لالتوسير الى اربع مراحل .

1 ـ **مرحلة ما قبل القطيعة الابستمولوجية** : وهي مرحلة الوعي الايديولوجي ، وتشمل في نظر التوسير كل مؤلفات ماركس قبل سنة 1845 من رسالة الدكتوراه حتى مخطوطات 1844 بما في ذلك « العائلة المقدسة » . ويقترح التوسير أن يطلق على مجموع هذه المؤلفات « مؤلفات الشباب » .

2 ـ **مرحلة القطيعة** : وهي التي تشمل المؤلفات التي كتبها ماركس سنة 1845 . ويتعلق الامر بقضايا ماركس حول فويرباخ وبكتاب الايديولوجيا الالمانية . ويقترح التوسير أن تسمى هذه المؤلفات « **مؤلفات القطيعة** » . وهناك فرق بين هذه المرحلة الثانية وبين سابقتها . ذلك ان ماركس يفكر في المرحلة الاولى ضمن الايديولوجيا ، ويطرح المشكلات تبعا للاشكالية الايديولوجية .

أما المرحلة الثانية فانها تمثل ، كما قلنا ، بداية وعي نظري جديد . الا أن هذا الوعي النظري الجديد لا يستطيع أن يكون على الفور وحدة نظرية متميزة جديدة . وهكذا فالمرحلة التي تعرف بمرحلة القطيعة لا تحقق القطيعة بصفة تامة ، اذ تظهر الاشكالية الجديدة في البداية في صورة نقدية وجدالية . كان ماركس اذن ينتقد في هذه المرحلة الاشكالية الايديولوجية ، وباستخدام عناصر ومفاهيم تلك الاشكالية ذاتها ، ولم يكن بعد قد كون لوعيه النظري الجديد الصياغة المفهومية الملائمة . كان هنالك اذن في هذه المرحلة الثانية وعي يتجاوز الاشكالية القديمة ، ولكنه اضطر مرحليا الى الاعتماد على مفاهيمها لكي يجد الطريق الى الاشكالية الجديدة .

3 ـ **هناك مرحلة ثالثة في تفكير ماركس** : وهي التي تمتد بين سنة 1845 وسنة 1857 . ويقترح التوسير أن تسمى مؤلفات هذه المرحلة بمؤلفات الانضاج Maturation وتتميز هذه المرحلة بكونها التي يتم فيها البحث

عن المفاهيم التي تعبر عن الاشكالية الجديدة التعبير المطابق . فبقدر ما كان الوعي بالاشكالية الجديدة يتقدم ، كان يقع معه الوعي بعدم قدرة وكفاية المفاهيم القديمة في التعبير عن هذه الاشكالية ، بل وتعارضها معها . ما يتم في هذه المرحلة اذن هو انضاج الاشكالية الجديدة التي ظهرت لاول مرة بصورة نقدية في « الايديولوجيا الالمانية » واعطاؤها ، بدلا من صورتها النقدية والجدالية ، صورتها الايجابية .

4 ـ **المرحلة الرابعة هي مرحلة مؤلفات النضج** : ويمثل هذه المرحلة التي تقع بعد سنة 1857 كتاب الرأسمال . تظهر هنا القطيعة الابستمولوجية في صيغتها الكاملة ، في صورتها الايجابية وفي صياغتها المفهومية الملائمة . يقطع ماركس هنا مع وعيه الايديولوجي السابق ويتكون لديه بصورة ناضجة وعي نظري جديد هو الوعي العلمي

وهكذا فان مفهوم القطيعة الابستمولوجية يستعار لدى التوسير من باشلار ليعبر عن الانتقال من الوعي الايديولوجي الى الوعي العلمي . واذا كان التوسير يعرب عن هذا الموقف في كتابه « دفاعا عن ماركس » ، فانه لا يتراجع عنه ، كما يعتقد البعض ذلك ، في كتابه اللاحق « عناصر في النقد الذاتي » é. d'autoritique فهو يسير في نظرنا في اتجاه تعميق هذا الموقف ، وذلك بدفع بعض الاخطاء عنه ، وخاصة تلك التي تاتي نتيجة لتبني موقف ذي نزعة نظرية Théoricisme لا ترى القطيعة حادثة الا في الفكر النظري لماركس ، ولا تربط ذلك بالالتزام العلمي له .

فالقطيعة الابستيمولوجية الحادثة في فكر ماركس ، كما يتحدث عنها التوسير قبل نقده الذاتي ، قطيعة تتعلق بالنظرية فحسب ، وتوجد تعارضا في فكر ماركس بين الايديولوجيا والعلم . ولكن ، الامر كما يتبين له عند تقديم نقده الذاتي غير ذلك . فالفكر النظري الجديد الذي يصبح بعد القطيعة هو الماركسية ، ليس فكرا يقطع مع الايديولوجيا هكذا بصورة مطلقة ، بل انه يقطع مع ايديولوجيا عينية معينة هي الايديولوجيا البرجوازية بالذات . ويتبين من ذلك وان تكن القطيعة الابستمولوجية قد وقعت على المستوى النظري ، الا انها قامت على أساس من الالتزام العملي لماركس . فبقدر ما كان ماركس يتقدم في الالتزام المجتمعي كان يسير نحو تحقيق تلك القطيعة الابستمولوجية. وهكذا فان القطيعة النظرية قامت على أساس من قطيعة أخرى هي التي كان ماركس يحققها في مواقفه التي كانت تتقدم شيئا فشيئا نحو الالتزام بمصالح الطبقات البروليتارية . بهذا المعنى اذن ، نرى أن التوسير قد سار في اتجاه تعميق مفهومه عن القطيعة الابستمولوجية لا في اتجاه التخلي عنه .
غير أن قيمة هذه القطيعة الابستمولوجية لا تقف عند أهميتها في تطور فكر

ماركس من كونه ايديولوجيا الى كونه علميا . فعلى أساس من هذه القطيعة يقوم في نظر التوسير علم جديد هو تاريخ التشكيلات المجتمعية ، او علم التاريخ . ذلك أن ماركس يمضي انطلاقا من القضايا حول فويرباخ ومن الايديولوجيا الالمانية في تطور فكري لا رجعة فيه لافتتاح هذا العلم الجديد . انه بتعبير التوسير يفتتح بفضل القطيعة الابستمولوجية التي حدثت في تفكيره سنة 1845 قارة علمية جديدة . لقد افتتح اليونانيون قارة علمية اولى هي الرياضيات ، وافتتح جاليلو قارة علمية ثانية هي الفيزياء ، اما ماركس فانه يفتتح قارة ثالثة هي التاريخ ، وذلك بالانتقال بهذا العلم من مرحلته ما قبل العلمية الى مرحلته العلمية . ليس معنى هذا أن ماركس يفتتح المعرفة التاريخية ، فقبل ماركس كان ما يشغل قارة التاريخ هو عدة ميادين متنوعة ومتعددة تتفاوت في درجة اتصافها بالسمة الايديولوجية ، ميادين لم تكن تعرف أنها تنتمي الى هذه القارة . لقد كان يشغل هذه القارة قبل ماركس ميادين كفلسفات التاريخ ، وكالاقتصاد السياسي ... الخ . والقطيعة الابستمولوجية التي حققها ماركس والتي أسست العلم الجديد لم تطرح السؤال حول حق هذه الميادين في أن تشغل تلك القارة فحسب ، وانما عملت على أن تصوغ صياغة جديدة بنية هذه القارة

ان اهمية القطيعة الابستمولوجية تكمن اذن في كونها تحدث في فكر فردي ، ولكنها تتحقق عبر ذلك على مستوى ميدان معرفي باكمله . وهي لهذا تعتبر ذات دلالة نظرية وايديولوجية . نريد أن نؤكد من جهتنا على هذه النتيجة التي يصل اليها التوسير . ونهدف بهذا التأكيد الى أن نرد بصفة مباشرة على بعض الانتقادات التي وجهت الى التوسير لاستخدامه مفهوم القطيعة الابستمولوجية البشلاري من أجل فهم فكر ماركس . ويعرب عن هذه الانتقادات المفكر الماركسي « آدام شاف » A. Schaff في كتابه « الماركسية والبنيوية » . يقول متحدثا عن التطبيق الالتوسيري لمفهوم القطيعة الابستمولوجية : « هذه النظرية حول الثورات العلمية تأملية بصورة غريبة . فلأن الامر يتعلق بتخطيط عام Schéma ، فانها تضع تلك النظريات في الزمن المعاصر وحده . لندع الآن هذا الجانب من المشكل لان الامر لا يتعلق هنا بباشلار بل بالتوسير . فالتوسير يؤول هذه النظرية بطريقته الخاصة ، اي بصورة جذرية . ذلك لانه اذا كان باشلار يتحدث عن تطور المعرفة الانسانية، اي عن تطور مجموع النظريات التي تفسر الواقع ، فان التوسير يطبق هذا المفهوم للقطيعة أو الانفصال Coupure كما يفضل تسميته على نظريات مفكر واحد بعينه »

يشير « آدام شاف » في قوله هذا الى قضيتين من مستويين مختلفين :

القضية الاولى هي ان نظرية باشلار حول الثورات العلمية نظرية مثالية . وهذه أعم القضيتين . والتوسير موافق مبدئيا على هذا التحليل وان لم يكن قد جعل من مهمته تقديم دراسة عن باشلار . ولعل موافقته المبدئية هذه تبدو في نقده لذاته وللنزعة النظرية التي بدت في تحليله . ولم يكن آدام شاف عند أشارته الى هذه القضية يقصد ، في الظاهر على الاقل ، أن ينتقد التوسير لكونه اعتمد على نظرية مثالية تأملية حول الثورات العلمية ليستخدمها في تحليل نشأة المادية التاريخية وتطورها . وقد كان يقصد شيئا آخر هو الذي تمثل في **القضية الثانية** والتي تتعلق بالتعارض بين المجال الواسع الذي تتحدث فيه النظرية الباشلارية ومحدودية التطبيق الذي يقوم به التوسير لهذه النظرية . فنظرية باشلار تتعلق بتاريخ العلوم بصفة عامة وتهدف الى أن تفسر الثورات التي تقوم في ميادين علمية بأكملها . أما التطبيق الالتوسيري فهو يقف عند حدود تطبيق هذه النظرية على التطور الفكري لمفكر واحد هو كارل ماركس .

وهذا في نظر « شاف » تطبيق غير ناجح .

لنلاحظ هنا أن « آدام شاف » لا يريد أن يكون قطعيا في انتقاده لالتوسير فلا يعيب عليه استخدامه لمفهوم القطيعة الابستمولوجية في ذاته وذلك بالرغم من الصفة المثالية لهذه النظرية ، انه يترك مناقشة هذا الامر الى مناقشة الموقف الباشلاري . ان ما يعيبه « شاف » على « التوسير » هو محدودية التطبيق الذي يقوم به .

غير اننا نستطيع أن نؤكد من جهتنا بان آدام شاف في هذا الانتقاد لم يدرك كل سعة المجال الذي يتحدث فيه التوسير عن قطيعة ابستمولوجية ، مطبقا بذلك في هذا المجال التصور الباشلاري على تاريخ العلوم . يتحدث التوسير حقا قطيعة ابيستيمولوجية تتعلق بالتطور الفكري لماركس كفرد ، وذلك عندما يوضح أن ماركس انطلق منذ سنة 1845 في طرح اشكالية جديدة ، وانه مضى بعد ذلك في تعميق هذه الاشكالية . ولكن التوسير يتحدث كما رأينا ذلك سابقا عن ماركس كفاتح لقارة علمية جديدة هي التاريخ . نريد أن نوضح مقارنين بباشلار ، أنه اذا كان باشلار يتحدث مع الهندسات اللا اقليدية ومع الفيزياء النسبية أو الكوانتية عن قطيعة ابستمولوجية في ميدان علمي بأكمله كالرياضيات والفيزياء ، فان التوسير يتحدث في نظرنا عن قطيعة ابستمولوجية حققها ماركس في ميدان علمي لا يقل سعة عن الميادين السابقة وهو العلوم الانسانية التي تتوحد هنا في التاريخ . فالمادية التاريخية التي تنشأ مع تلك القطيعة هي صورة لوحدة العلوم الانسانية في التاريخ . ولادراك وجود هذه القطيعة أهمية من حيث الفهم الحقيقي للماركسية فيما يرى التوسير ذلك لان هذه القطيعة الابستمولوجية هي التي توضح لنا بالذات ما الذي يميز

الماركسية كنظرية . والماركسية كنظرية متميزة هي ما يأتي بعد القطيعة .

وهنا سنطرح سؤالا سيمكننا عند محاولة الاجابة عنه من المقارنة بين باشلار للقطيعة الابستمولوجية ، وبين استخدام التوسير لهذا المفهوم . نصوغ السؤال كالتالي :

هل تجعلنا القطيعة الابستمولوجية التي حدثت في فكر ماركس أمام ماركسيين ؟

هل تعني القطيعة أن هنالك انفصالا بين تفكير ماركس الذي سبقها وتفكيره الذي بدأ وتطور بفضلها ؟

هناك من الدارسين من يعتقد أن هذا بعينه ما يقصده التوسير . وأهم هؤلاء المعترضين « آدام شاف » ذاته الذي يرى أن النظرية التي تقول بوجود قطيعة ابستمولوجية تؤدي الى التفكير بماركسين : ماركس الشاب ، وماركس الناضج . أما الحقيقة في نظر « آدام شاف » أن كثيرا من المفاهيم التي تدعي تلك النظرية ان لا استمرار لها بعد القطيعة توجد في مؤلفات القطيعة وفي مؤلفات النضج وليست القطيعة التي يتحدث عنها التوسير الا نتاجا لخياله، ولكي يدحض « شاف » هذه النتيجة للخيال يعطي أمثلة عن مفاهيم وجدت عند ماركس قبل القطيعة وبعدها . ويركز « شاف » بهذا الصدد على مفهوم **الاستلاب** بصفة خاصة ، ويستشهد بعدد من النصوص من مؤلفات ماركس بعد سنة 1845 وخاصة مؤلفات سنة 1857 ليثبت من خلالها أن هنالك على عكس ما يعتقد التوسير استمرارية في التفكير الماركسي . ولا نريد هنا أن ندخل في مناقشة تلك النصوص ولا في تفاصيل الحوار الذي يفتح حولها ، لان ذلك قد يخرج بنا عن الهدف المحدود الذي نريده من هذه الدراسة ، ولكننا نستطيع أن نؤكد أن مثل هذا الانتقاد الذي يوجهه « شاف » ضد التطبيق الالتوسيري لمفهوم القطيعة الابستمولوجية ، لا يأخذ بعين الاعتبار المعنى الباشلاري الذي طبق به التوسير هذا المفهوم . فالقطيعة الابستمولوجية ، بالمعنى الباشلاري ، لا تعني الانفصال بين الفكر النظري الناشيء عندها والفكر النظري السابق عليها .

ان ما يعنيه باشلار بالقطيعة الابستمولوجية **انما هو انتقال الفكر العلمي الى تفسير أشمل للظواهر ، يحتوي الفكر العلمي السابق له ولا يلغيه أو ينفصل عنه وان القطيعة الابستمولوجية انما تقع حيث تعجز المفاهيم العلمية القائمة عن تفسير وقائع جديدة لم يسبق لها أن عرضت للتفكير العلمي .**

ان التوسير يتحدث في نظرنا بهذا المعنى عن قطيعة ابستيمولوجية في فكر ماركس . تعني القطيعة اذن أن ماركس استعاض عن المفاهيم القديمة بمفاهيم أكثر شمولا منها في تفسير الوقائع التاريخية والمجتمعية . ويبدو

هذا الذي نرى أن ألتوسير يقول به في حديثه عن الانتقال الى الاشكالية الماركسية ، وفي علاقة هذه الاشكالية بالسابقة عليها . يتبين هذا في نظر ألتوسير عندما نقرأ نصوص فويرباخ لانها تساعد الى حد كبير على فهم حركة اليسار الهيغلي وتطورها بين سنة 1841 وسنة 1845 . اننا نتبين مدى تأثر النصوص الماركسية في هذه الفترة بفويرباخ ، ليس فقط في أخذ بعض المفاهيم (كمفهوم الاستلاب) وانما في تبني الاشكالية الفويرباخية باكملها. فانطلاقا من الاشكالية الفويرباخية يتم في هذه الفترة نقد هيغل .

ان التساؤل لا يكون اذن حول وجود أو عدم وجود بعض العناصر من فكر ماركس بعد القطيعة . فالقطيعة لا تعني انفصالا ، ان التساؤل ينبغي أن يكون في حالة استمرار بعض المفاهيم عن المعنى الذي تأخذه هذه المفاهيم التي تم الاحتفاظ بها ضمن الاشكالية الجديدة . يرى ألتوسير بهذا الصدد أنه اذا كان ماركس قد تبنى الاشكالية الفويرباخية فان القطيعة تقوم عندما تصبح عناصر تلك الاشكالية غير كافية . ولكن هذا لا يعني مع ذلك الرفض المطلق ، بل يعني قبول اشكالية جديدة يمكن أن تقبل ضمنها بعض المفاهيم القديمة بحيث تقبل ضمن كل جديد تأخذ فيه بصورة جذرية معنى جديدا

نريد أن نبين هنا أن النقد الذي يوجه الى ألتوسير لا يقف عند عدم فهمه للتطبيق الالتوسيري لمفهوم القطيعة ، بل يتعداه الى عدم ادراك المعنى الباشلاري للقطيعة . ان المفاهيم القديمة في هذا المعنى هي التي تفهم انطلاقا من المفاهيم الجديدة . وهذا هو ما لا تستطيع فهمه كل نزعة استمرارية . وهذا هو الفهم الذي يقترحه علينا ألتوسير لماركس : يكون علينا أن نقرأ مؤلفات ماركس قراءة جديدة نبدأ فيها من مؤلفات النضج باعتبارها المؤلفات التي تتمثل فيها حقيقة النظرية الماركسية ، لننتقل بعد ذلك بمسفة تدريجية الى مؤلفات الشباب التي ستفهم في حقيقتها في ضوء مؤلفات النضج . فهنا أيضا ، كما كان الامر عند باشلار ، السابق هو الذي يفهم في ضوء اللاحق وليس العكس . وان الامثلة التي يمكن أن تقدم هنا على هذه القضية هي مفاهيم أخرى غير مفهوم الاستلاب الذي اختار « شاف » أن يركز حوله انتقاده . ومن هذه المفاهيم التي يمكن ان يفهم مفهوم الاستلاب ذاته في ضوئها : نمط الانتاج ، الصراع الطبقي ، وفائض القيمة ... الخ . ففي اطار الاشكالية التي تكون هذه المفاهيم وغيرها عناصرها يفهم الاستلاب على غير ما كان يفهم عليه في اطار الاشكالية الفويرباخية .

هكذا اذن نرى أن ألتوسير قد طبق مفهوم القطيعة الابستمولوجية بالمعنى الباشلاري لهذا المفهوم . فهو لا يصرح الا بأنه يستعير من باشلار هذا المفهوم دون أن يتجاوز ذلك الى التصريح بأنه يجدد فيه ما كان يهم التوسير ليس

التجديد في مفهوم القطيعة الابستمولوجية في بنيته كمفهوم ، بل هو النتائج التي يمكن الحصول عليها عند تطبيق هذا المفهوم على تاريخ التفكير الماركسي . ولقد استطاع التوسير أن يصل بالفعل الى بعض النتائج الجديدة في فهم تفكير ماركس .

غير أنه اذا لم يكن التوسير قد انتقد مفهوم القطيعة الابستمولوجية في بنيته فان هذا لم يمنعه من أن يعي بأن نقل مفهوم من اطار نظري الى اطار نظري آخر لا بد وأن تكون له بدوره نتائج جديدة . فللميدان الجديد الذي ينتقل اليه المفهوم خصائصه المميزة .

عندما يتحدث باشلار عن قطيعة ابستمولوجية ، فان هذه القطيعة تكون بين فكر علمي قائم وفكر علمي ناشيء . تقع القطيعة هنا اذن ضمن الفكر العلمي . أما التوسير فانه عندما يتحدث عن قطيعة ابستمولوجية بين علم جديد وما يدعوه ما قبل تاريخ هذا العلم ، يتحدث عن قطيعة بين تاريخ بداية العلم وبين نهاية تاريخ الايديولوجية في ذلك الميدان ذاته .

عندما كان باشلار يتحدث عن قطيعة ابستمولوجية بصدد النظريات العلمية الجديدة في الرياضيات والفيزياء ، منذ نهاية ق. 19 ، لم يكن يتحدث عن علم يبدأ تاريخه بل عن علم يحقق قفزة كيفية في تطوره . فقد بلغت العلوم الرياضية والفيزيائية في ذلك الوقت قدرا كبيرا من التطور . أما القطيعة الابستمولوجية التي يتحدث عنها التوسير في النصف الثاني من القرن 19 فهي تقع في ميدان معرفي يختلف عن الميادين السابقة . ان الفارق هو ان الميادين التي كان يتحدث عنها باشلار ، كانت تشغلها نظريات علمية في حين أن ما كان يشغل الميدان الذي يتحدث عنه التوسير نظريات ايديولوجية .

على أننا نريد أن ننبه الى قضية أخرى ، فبدون أن ننكر قيمة النتائج الجديدة التي توصل اليها التوسير في فهم ماركس بفضل تطبيقه لمفهوم القطيعة الابستمولوجية ، نؤكد في الوقت ذاته أننا لا نرى أن تأثير القطيعة التي يتحدث عنها باشلار ، وتلك التي تحدث عنها التوسير ،كان بالمستوى نفسه كل في ميدانه . ان ما يحققه « لوباتشفسكي » و « ريمن » في ميدان العلوم الرياضية ، وما يحققه « انشتاين » و « بلانك » في ميدان العلوم الفيزيائية انتقال لا رجعة فيه الى القديم . اما القطيعة الابستمولوجية التي حققها ماركس فلم تمنع بعد قيامها من أن تستمر بعض الدراسات دون أخذها بعين الاعتبار . وان لهذا أسبابه الخاصة التي نعتقد أن التوسير يدركها وان لم يكن قد أشار اليها .

هكذا نرى اذن أن التوسير قد فتح باب الحوار بين المادية التاريخية

وباشلار ، وقد فعل ذلك كما قلنا سابقا بقوة نوعية خاصة ، جعلته ينطلق من المادية التاريخية ذاتها الى باشلار ليأخذ عنه مفهومه في القطيعة الابستمولوجية . ولكن التوسير اذ استعار مفهوما من فيلسوف ليس ماديا تاريخيا فانه استطاع من جهة أولى أن يكيف هذا المفهوم ضمن الاطار النظري الجديد ، وأن يجعل منه أداة فعالة تمكنه من تقديم نتائج جديدة تتعلق بفهم المادية التاريخية ذاتها

وحيث يفعل ذلك التوسير فانه يغني المفهوم الباشلاري الذي يستخدمه باعطائه مجالا جديرا لامتحان اجرائيته . ولكنه من جهة ثانية يبين الى اي حد يتميز الموقف المادي التاريخي بالتفتح الذي يجعله قادرا على أن يستوعب ويتعامل مع كل الادوات المعرفية الايجابية ، حتى وان تم تطوير وبلورة هذه الادوات خارج اطار هذا الموقف .

« الآداب »

مجلة شهرية تعنى بشؤو الثقافة والفكر
المدير المسؤول : د. سهيل ادريس

دراسات ، نصوص قصصية وشعرية
تباع في كل الاقطار العربية
سعر العدد بالمغرب 7 دراهم